

العادات الاجتماعية الشعبية ودورها في العلاج

د/ بن صافي أمال

جامعة تلمسان

الملخص:

لقد خلق الله تعالى الأرض و ما عليها من نباتات ليتعاش عليها الحيوان و الإنسان فأصابهما بالمرض و جعل علاجهما في تناول أيديهما فبعضها كان يقبل عليها الحيوان بشرائه و البعض لا يقربها, و في حين آخر يصاب ببعض الأغراض مثل الإسهال و الإغماء حين يقربها و أحيانا عند حك جسمه بها و كما لاحظ الإنسان شفاء بعض هذه الأمراض التي ظهرت على الحيوان مثل الحرب و الأمراض الجلدية الأخرى. ولهذا نقول بان الله وهب لنا الداء و الدواء.

1 المفهوم و الممارسات:

يعود عهد الطب الشعبي إلى زمن عريق في القدم عندما عرف كل من البشر و الحيوانات كيفية الاستفادة من الطبيعة و نباتاتها في شفاء و علاج أمراضهم و الوقاية منها.وقد أطلق بعض المهتمين على تلك المرحلة التي يتم فيها التداوي بالأعشاب بصيدلية الطبيعة، و التي كانت تمد الإنسان عندما يصاب بمرض ما بالدواء اللازم المتوفر في الأعشاب الجبلية والصحراوية و غيرها فيصنع منها الأدوية من شراب ووصفات

و مراهم شافية لأمرضه وعالله, بأنها مرحلة الطب الشعبي.

وقد كان ابتداء الطب الشعبي في مختلف مناطق العالم و منذ الأزمة البعيدة الموعلة في القدم مستمدا و قائما على أسس و قواعد وقوانين طبيعية و بيولوجية قديمة من أجل المحافظة على قوى الجسم و صحته في ظروف الحياة الطبيعية و الإنسانية السائدة .

مع العلم بأن صحة تلك الأسس و القواعد في استخدام الطب الشعبي و التداوي بالأعشاب ليست مقيدة أو معترف بها في حدود مكانية أو جغرافية دون أخرى بل انه بالإمكان ممارستها و تطبيقها بنجاح في مختلف الأماكن وقد انتشر هذا الاستخدام نتيجة لرؤية

و هدف الطب الشعبي التي تمثلت في تحقيق الوقاية للجسم من الأمراض التي تلم به وهنا يكون للطب الشعبي نتائج ايجابية تحققت من خلال محاولات المجتمعات الإنسانية عموما للاستفادة من عناصر الدواء و العلاج المتوفرة طبيعيا. وهذا بعكس الحال في زعم بعض الناس من ان كلمة الطب الشعبي و مفهومه و ممارسته ما هي إلا محاولات و ممارسات قائمة على المحاولة و الخطأ يقوم بها بعض العجائز و الدايات و الخبراء و الخبرات من المطبين الشعبيين , و انه كثيرا ما كانت ممارستهم قائمة و مستندة إلى الأسلوب الخرافي أكثر من استنادها إلى الأسلوب العلمي و المنطقي.

وقد يظن البعض إن التداوي بالأعشاب كان قاصرا و لا زال على استخدام الإنسان له في تداوي أمراضه و عله،ولكن المتبع لسلوك الحيوانات في الطبيعة يجد أنها تلجا غريزيا و دون خطأ أو تردد إلى الاستفادة من نباتات و عناصر الطبيعية في علاج علهها وأمراضها فهنا هي الحيوانات الوحشية المفترسة عندما تصاب بمرض معين فإنها تنشد العزلة والراحة التامة، ثم نعتد في معالجة مرضها و خمولها على أكل و تناول نباتات معينة تنتقيها من الحشائش الطبيعية مع الانطلاق و التجوال في الهواء الطلق النقي¹.

فالطب الشعبي يعتد إن الإصابة بمرض أو علة من العلة ما هي إلا نتيجة لنقص واضطرابات تصيب عاملا من العوامل الأساسية في القوانين الطبيعية، و هنا ينظر الطب الشعبي إلى عامل التغذية المستمدة من عناصر و نباتات الطبيعية .

و لهذا فقد درج علماء الانثروبولوجيا و العلوم الإنسانية المهتمون بتحليل العلاقة الجدلية القائمة بين كل من الصحة و المرض و المجتمع على تفسير و توضيح مفهومي أساسيين في هذا الشأن هما:

مفهوم الطب الشعبي أو كما يعرف أحيانا في التراث الانثروبولوجي بالطب الانثروبولوجي وهو المفهوم الذي ينظر إلى الصحة و المرض على أنهما يحملان دلالات لفظية و معنوية تتحدد بطرق وأساليب مختلفة لدى المرض وعائلاتهم وذويهم و المجتمعات المحلية التي يقيمون فيها، والممارسين للطرق العلاجية الشعبية المحلية الذين يتعاملون معهم، و هذا المفهوم و تطبيقاته يعد المجال الحيوي الذي يمارس الانثروبولوجيون فيه دراستهم و أبحاثهم و تطبيق رؤيتهم التحليلية لجوانب الصحة و المرض و طرق ممارسات العلاج. و تستند تلك

النظرة عند تحليل و تفسير تلك العلاقة بين الصحة و المرض و المجتمع على معايير الثقافة المحلية و التفاعلات الشخصية و الجماعية معها, و في حدود إطارها العام الذي يضم – معاني و معايير القوة الشرعية المجتمعية و الثقافية للطب الشعبي و ممارسته

– الفهم الواضح للعوامل العرقية و التنظيمية , ووظائف الدور و مؤثراته في تحليل المرض و المرضى و الخبرات الحقيقية حول فهمه و تشخيصه و علاجه.

– تحليل الصحة و المرض في ضوء شبكة العلاقات الاجتماعية المحلية من جهة

و العلاقات مع الأطباء أو الممارسين الشعبيين من جهة أخرى أما المفهوم الثاني, فهو الطب الرسمي أو الحديث, و هو المدخل الذي يفسر تلك العلاقة الجدلية من خلال النظرة آلية يعزل فيها مفهومي الصحة و المرض عن الشخص المريض و محيطه الثقافي والاجتماعي, ويعتمد أساسا على الرصيد و المخزون التجريبي للأدوية و العقاقير الكيميائية في مواجهة المرض مع افتراضات مثالية لمقومات الصحة الفردية و الصحة العامة.

أما عن ممارسات الطب الشعبي فقد جاءت من خلال اتجاهين رئيسيين هما:

1- الطب الشعبي الطبيعي:

و هو الفرع الذي يضم الممارسات المرتبطة بالطب النباتي أو طب الأعشاب في العلاج كنتيجة أولية للعلاقة القائمة بين الإنسان و الطبيعة أو بين الإنسان و بيئته التي يعيش فيها و التي تتضمن على ردود الأفعال و الاستجابات المبكرة لسعي الإنسان في علاج أمراضه عن طريق الأعشاب و النباتات الطبية.

2- الطب الشعبي السحري أو الغامض:

يرتبط بمرحلة تمر بها المجتمعات و الثقافات يطلق عليها مرحلة ما قبل العلمية ويسود فيها نوع من الطب الشعبي الاجتماعي تعتمد طرقه وأساليبه العلاجية على ممارسات السحر و الشعوذة مما أدى إلى ظهور مسميات محلية مثل الشامان أو الطبيب الساحر و المعالجين الروحانيين و قارئ البخت و الكف وغيرهم من الدجالين و أصحاب المعرفة الطبية و الشعبية. ويعد هذا المجال من المجالات التي استحوذت على اهتمام الأنثروبولوجيين الاجتماعيين و الثقافييين معا من أجل فهم و تحليل الإطار الاجتماعي و الثقافي للمجتمعات المحلية, و ما يمثله من انعكاسات متميزة لطرق معيشة الناس و الجماعات في تلك المجتمعات².

و في ضوء ما سبق يشير مفهوم الطب الشعبي في أبسط معانيه بأنه جميع الأفكار ووجهات النظر التقليدية حول المرض و طرق العلاج, وما يتصل بذلك من ممارسات وسلوكيات تتعلق بالوقاية و التطبيب بصرف النظر عن النسق الرسمي للطب الحديث و بعيدا عنه. ولكن من الجدير بالذكر أن هذا المفهوم و ممارساته قد لا ينطبق فقط على المجتمعات البسيطة و التقليدية و المجتمعات بطيئة التغير ذات العادات و المعتقدات الراسخة في الضمير الجمعي, و الوجدان الثقافي لها, وإنما يشير أيضا إلى طرائق التفكير و العادات الاجتماعية الشعبية المتصلة بالطب الشعبي و ممارسته بين المتعلمين و المثقفين.

و خلاصة القول أن تلك الممارسات و الاهتمامات الطب الشعبي في مختلف المجتمعات لولا أن مستخدميها وجدوا فيها أو في استخدامها نفعاً لهم لما ابقوا عليها, ولما حافظوا عليها و تناقلوها جيلاً بعد جيل, لذا فإن النظرة تجاه مراجعة هذا التراث الطبي الشعبي, و الذي ارتبط بعادات و معتقدات و ممارسات فاعله أمراً واجباً و مسؤولية ملحة تجاه الجيل الحالي, وان رفضه و عدم التعامل معه يعتبر خطأ جسيماً, ولا سيما إذا أخذنا في الاعتبار أن ما اعتادت عليه المجتمعات و الثقافات المحلية لا يغير فرض القانون, وإنما الأجدار في تلك الحالات أن يكون هناك إحلال لعادات بديلة تتقبلها المجتمعات و الثقافات باقتناع و تفضيل, وقد يستغرق ذلك مدى أطول في الممارسة و تثبيت و ترسيخ العادات البديلة.

الطب الشعبي و العادات الاجتماعية الشعبية:

الطرائق الشعبية, إنما تشير إلى Sumner الثقافة كما وردت في كتاب سمنر الأساليب التي يتكيف الناس بها طبقاً لظروف حياتهم الاجتماعية و الثقافية, ويتطلب ذلك التكيف الأفعال المتغيرة و المتنوعة و المنتقاة التي يقوم أعضاء المجتمع من جيل إلى جيل آخر³ لم يستعمل سمنر كلمة الثقافة بالإنجليزية لأنه أراد أن يوسع الدائرة اللغوية للمفهوم وفضل استخدام Cultur إشارة إلى أن الأساليب و الطرائق الشعبية التي يتعلمها أعضاء Civilisation المجتمع إنما تساعدهم على حل مشكلاتهم التي تواجههم في الحياة.

لذا فقد جاءت الطرائق و الممارسات الشعبية التي يمارسها أعضاء المجتمع ما داخله في تكوين مضمون الثقافة من جهة، و محققة لإشباع وإرضاء الحاجات الضرورية للناس من جهة أخرى، و لا يغيب عن ذهننا أن تلك المحاولات من الأفعال و الممارسات للطرائق الشعبية المختلفة التي كان الناس يقومون بها في مجتمعاتهم و إنما كان يغلب عليها طابع المحاولة و الخطأ و التكرارية و العشوائية، أحيانا، حتى وصلت المجتمعات الإنسانية بعد عناء و شقاء شديدين إلى بلورت بعض الطرق الصائبة و المفيدة.

و من هنا يرى "سمنر" أن تلك المحاولات في الممارسات و السلوكيات التي حققت نجاحا و إشباعا لرغبات و حاجات المجتمع هي التي بدأت في تكوين ما يعرف عنده بالعوادات الاجتماعية الشعبية التي تعارف عليها المجتمع و من ثم يعمل على تأصيلها و تثبيتها اجتماعيا ثم نقلها إلى الأجيال القادمة في صورة عادات و أعراف و تقاليد يتعامل معها أعضاء المجتمع بقدر من التقدير و الاحترام و الاعتزاز بهذا التراث في الوقت نفسه.

إذن أهم ما يميز أراء سمنر في نشأة و تأصيل و ترسيخ العادات الاجتماعية أي الأساليب و الطرائق الشعبية مايلي:

1 -أنها تجربة حاضرة، تلقائية و عضوية، وضرورية، تعمل على تحقيق الترابط الإنساني بين أعضاء الجماعة أو المجتمع.

2 -الأساليب و الطرائق الشعبية هي رصيد زاخر من العادات و التقاليد و الأعراف

و الممارسات التي ارتضاها المجتمع فمعيارها حدود مرسومة فأصبح الشخص ملزما بالسير وفق ما جاء بها و كان تقبله لها يتم دون تفكير منطقي من جانبه في بعض الأحيان.

3 -الأساليب و الطرائق الشعبية ترادف إلى حد كبير مفهوم الثقافة من حيث النشأة في التجربة الإنسانية الطويلة و التلقائية و العضوية.

إذن فالطرائق الشعبية شأنها شأن الثقافة لها قدرة هائلة على الانتقال عبر الزمن, بل إن من أوجه تلك الطرائق التي تتمثل بوجه خاص في العادات و التقاليد و العقائد و الخرافات و الأساطير تحتفظ بكيانها لعدة أجيال لا شيء إلا أنها وجدت في الوقت من الأوقات في المجتمع, فتظل موجودة حتى بعد أن يزول السبب الذي أدى إلى ظهورها في أول الأمر4.

ولكن الملاحظ إن الثقافة عندما تتناقل بين الأجيال تصبح "استقلالية" بمعنى أن الجيل الذي يتلقى عناصر الثقافة ينتقى بعضا منها ويستبعد بعضها الآخر تبعا لظروفه وحاجاته.

ولهذا نعرف العادات و السنن أو الطرائق الشعبية بأنها ظاهرة أساسية من ظواهر الحياة الاجتماعية الإنسانية, و أنها حقيقة أصلية من حقائق الوجود الاجتماعي حيث نصادفها في كثير من المجتمعات البسيطة و المتقدمة وهي تؤدي في نفس الوقت و في نفس المجتمعات كثيرا من الوظائف الاجتماعية و الثقافية الهامة.

ولذلك فمن الخطأ الكبير الاعتقاد بأننا لا يمكن أن نلتمس العادات أو السنن أو الطرائق الشعبية (العادات الاجتماعية) إلا في التقاليد العتيقة المتوارثة فحسب كما أنها من العبث الاقتصار عند محاولة تفسيرها على إرجاعها إلى صورها القديمة و أصولها الغابرة.⁵

ولهذا فقد جاءت كثير من المعتقدات و الممارسات الخرافية لعلاج الأمراض التي تصيب الإنسان و كيفية شفائها منها نتيجة لوجود تراث و مصادر شعبية يمكن للناس الاعتماد عليها ويوكلون بها إلى أشخاص يطلق عليهم أهل الطب أو الطبيب الشعبي⁶

أما عن أهم الإسهامات التي جاءت لتفسير نظرية الثقافة و علاقتها بلب المجتمعات المحلية و معتقداتها فكانت نظرية مالينوفسكي في الثقافة، و القائمة أساسا على الحاجات الأساسية و الاحتمالات المتعددة و المتنوعة لإرضائها، و إشباعها مع الاهتمام بوجه خاص بالجانب الوظيفي الذي يميز ظاهرة الثقافة في كل مجتمع⁷.

أي أن العادات الاجتماعية التي تكون و تشكل الثقافة إنما ينظر إليها على أنها تمثل نماذج مثالية ينبغي على أعضاء الجماعة المحلية أو المجتمع المحلي أن يأخذوا بها

و يمثلوها و قد يكون هناك تفاوت ملحوظ بين النظر إلى النموذج و بين التعامل مع واقع الثقافة لكن من الجدير بالذكر أن أهمية وجود النموذج و المحافظة عليه لا بد أن تبقى موجودة و معروفة بمقدار ما تحمله المعايير الخاصة للثقافة من قدرة للحفاظ على رمزية الثقافة الخاصة أو المحلية.

إذن فالثقافة اجتماعية بمعنى أن الأفراد الذين يعيشون في جماعات أو مجتمعات محلية منظمة يشتركون معا في ثقافة معينة، وهي التي تجعلهم يميلون إلى أداء الأفعال بطريقة جماعية وهذا هو السبب الذي يجعل الناس في جماعة معينة أو مجتمع معين يبدون متشابهين فيما بينهم بالنسبة للغرباء عن جماعاتهم أو مجتمعاتهم فالعادات التي يشترك فيها أعضاء الجماعة بعضهم مع بعض هي التي تكون و تشكل ثقافة تلك الجماعة فالعادات الجماعية أو العادات المشتركة هي التي تبلور ثقافتها طابع متميز⁸.

فالثقافة هي نتاج تكوين العادات التي يكتسبها الفرد خلال الحياة كما تتضمن على توقعات الجماعة التي يتعلمها الفرد خلال عملية التنشئة الاجتماعية التي يمر بها فهو بمقتضاها يكتسب عموميات السلوك التي تشكل ثقافته.

و أهم ما نستخلصه هو جماعية السلوك الذي وصف بالانتظام و الخضوع لنهج و ممارسات معينة و محددة تجعل الأفراد يسلكون مسالك و تصرفات منتظمة و غير عشوائية. و هو ما يبعد السلوك الاجتماعي عن الدوافع و الممارسات الفوضوية عند اتجاهه نحو اكتساب و تعلم و تكوين أساليب الحياة في اطار و شكل السلوك الإنساني النموذجي.

الهوامش:

- 1- د. جارفيس, الطب الشعبي, ترجمة الدكتور أمين رويحه, دار العلم, بيروت, الطبعة الرابعة, 1982, ص 14.
- 2- دكتور احمد الخشاب, دراسات انثربولوجية, دار المعارف القاهرة, 1979 ص 68
- 3- Willem g.sumner .fobkways.a study of the sociological in patance of usages manners. Customs mores and morals. Newyork.1940.pp 14-18
- 4- د. احمد أبو زيد تايلور, من أعلام الفكر الغربي, دار المعارف, ص 54.
- 5- دكتور محمد الجوهرى, علم الفلكور, دراسة في الانثروبولوجيا الثقافية, دار المعارف, الطبعة الرابعة, القاهرة, 1980, ص 64.
- 6- نفسه , ص 65
- 7- malinowski bi.ascientific hreary of Cultur mortine Carolina Chapel Hill.1944.pp.36-38
- 8- د. سامية حسن الساعاتي والثقافة و الشخصية , بحث في علم الاجتماع الثقافي, دار النهضة العربية للنشر, الطبعة الثانية, بيروت, 1983, ص 74.75